Received	30 April 2026	Accepted	1 May 2026
Revised	13 May 2026	Published	30 June 2026
Volume	8, (June) 2026	Pages	35-49
http://doi.org/			

To cite:
Hossam Attaallah Esaeid Attaallah, et al. 2026. Maṭāliʿ al-Qurʾān zamanan wa naẓman: dirāsah balāghiyyah taḥlīliyyah. *Al-Qalam International Journal of Arabic Studies*. Vol. 8 (June 2026): 35-49
DOI: http://doi.org/

مطالع القرآن زمنا ونظما دراسة بلاغية تحليلية

The Openings of the Qur'an Chronologically and Structurally: An Analytical Rhetorical Study

Hossam Attaallah Esaeid Attaallah[1], Khairul Asyraf Mohd Nathir[2] & Mohamed Haji Ibrahim[3]

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدلالات البلاغية لمطالع القرآن الكريم زمنا ونظما، والمتمثلة في: القرآن، الكتاب، اقرأ، الهدى، باعتبارها كلمات مفتاحية أساسية تكشف عن المقاصد الكلية للوحي الإلهي. وانطلقت الدراسة من التمييز بين الترتيب الزمني لنزول القرآن مفرّقًا بحسب الوقائع، والترتيب النظمي البنيوي حسب جمعه في المصحف مطابقا للنحو المسطور في اللوح المحفوظ. وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على استقراء النصوص القرآنية وتحليلها بلاغيًا، للكشف عن مدى ارتباط هذه المطالع بمقاصد القرآن العامة. وأظهرت النتائج أن الكلمات الأربع هي مطالع القرآن زمنا ونظما، وتمثل كلمات مفتاحية كلية جامعة لمقاصد القرآن العظيم، وأن بينها تناسبًا معجزا يتجلى في الربط بين مطلع القرآن زمنيا عند نزوله الأول ومطلعه نظميا في ترتيبه المصحفي، بما يعكس وحدة بنائه النصي والبلاغي، ويؤكد أن غاياته الكبرى تتشعب عن هذه المفاتيح الجامعة.

الكلمات المفتاحية: مطالع القرآن، المقاصد، الترتيب الزمني، الترتيب البنيوي، وحدة النص.

Abstract

This study aims to highlight the rhetorical significance of the opening verses (Matāli') of the Holy Qur'an, both chronologically and

[1] Faculty of Major Languages. Islamic Science University of Malaysia. Nilai. Malaysia. e-Mail: attaallahhossam@gmail.com
[2] Faculty of Major Languages. Islamic Science University of Malaysia. Nilai. Malaysia.
[3] Faculty of Major Languages. Islamic Science University of Malaysia. Nilai. Malaysia.

structurally, as exemplified by the terms: Al-Qur'an, Al-Kitāb, Iqra' (Read), and Al-Huda (Guidance). These are treated as fundamental keywords that reveal the universal objectives (Al-Maqāṣid al-Kulliyya) of divine revelation. The study distinguishes between the chronological order of the Qur'an's revelation (Al-Tanzīl), which occurred gradually in response to specific events, and the structural-canonical order (Al-Nazm) as compiled in the Musḥaf, corresponding to the preserved format in the "Al-Lawḥ al-Maḥfūẓ." Employing a descriptive-analytical approach based on the induction and rhetorical analysis of Qur'anic texts, the research examines the correlation between these openings and the general objectives of the Qur'an. The findings reveal that these four terms serve as the primary thematic openings both chronologically and structurally, representing comprehensive keywords for the grand objectives of the Qur'an. Furthermore, the results demonstrate a miraculous consistency (Tanāsub) manifested in the link between the chronological beginning of the revelation and its structural arrangement in the Musḥaf. This reflects the unity of its textual and rhetorical construction, confirming that the Qur'an's ultimate goals branch out from these comprehensive keys.

***Keywords**: Qur'anic Openings. Higher Objectives. Chronological Order. Structural Order. Textual Unity*

مقدمة

الحمد لله الذي أبان مقاصد كتابه بمطالعه، وفصَّل معاني خطابه بمقاطعه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب لسانا، وأبلغهم بيانا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.تُعَدّ مطالع النصوص الأدبية والعلمية بمثابة عتبة أساسية لفهم الموضوعات والمضامين التي تحملها، إذ تُختزل فيها المقاصد الكبرى، وتُستشفّ منها الأبعاد الكلية للخطاب. وإذا كان هذا معهودًا في الكتابات الإنسانية عامةً، فإنّ القرآن الكريم بما يحمله من إعجاز بياني وعمق دلالي قد اشتمل منذ مطلعه على كلمات مفتاحية جامعة، تُعدّ بمنزلة المفاتيح الكاشفة لمقاصده الكلية وغاياته العليا. ومن أبرز هذه الكلمات التي وردت في مطالع القرآن زمنا ونظما، وتستوقف القارئ المتدبّر: القرآن، الكتاب، اقرأ، الهدى. وكأنها محاور دلالية كبرى تحمل في طيّاتها رسالة القرآن بأبعادها العقدية والتشريعية والتربوية.

وهذه المقالة تهدف إلى دراسة مطلع القرآن زمنيا ونظميا في إطار منهجي يجمع بين التحليل البلاغي والنظر المقاصدي؛ للكشف عن العلاقة بين مطالع القرآن الكريم ومقاصده الكلية؛ وما دلالة بدايات النزول وبدايات النظم القرآني على المقاصد الكبرى للخطاب القرآني. فالنظر المتأمل في الترتيب الزمني للنزول والترتيب النظمي للمصحف يفتح آفاقًا واسعة لإدراك سرّ اختيار هذه الكلمات في اللحظات الأولى من نزول الوحي في مطلع القرآن الزمني (اقرأ) ثم حضورها في مطلعه النظمي في أول سورة البقرة (ذلك الكتاب). ولعل هذا ما يشير إليه قوله – تعالى: -:﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ

﴿خَبِيرٍ﴾ (هود:١) فالترتيب النظمي هو الترتيب المحكم السابق في الأزل، المطابق لما في اللوح المحفوظ، والترتيب الزمني هو الترتيب المفصل المنزل حسب الحوادث على مدار ثلاثة وعشرين عاما.

وتمثل هذه الدراسة محاولة للكشف عن دلالات هذه الكلمات المفتاحية الأربع في ضوء البلاغة القرآنية، مع إبراز كيف أنها مفاتيح دلالية تُسهم في فهم المقاصد الكبرى للقرآن. فكلمة "القرآن" تُشير إلى حقيقة الوحي المنزل المتلوّ المتعبّد بتلاوته، بينما كلمة "الكتاب" تُبرز بُعد التوثيق والتشريع والمرجعية الثابتة. أما كلمة "اقرأ" فتمثل السبيل إلى إنقاذ البشرية من خلال قراءة هذا الكتاب وفهم مراميه، وتجعل من القراءة أمرا إلهيا ومنهجا ربانيا يقود الإنسان إلى معرفة خالقه والاهتداء إلى طريقه المستقيم، وكلمة "الهدى" تبرز المقصد الأعلى للقرآن كله، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى سواء السبيل.

وتعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، عبر استقراء النصوص القرآنية في مطلعه الزمني والنظمي، وتحليلها بلاغيًا للكشف عن التناسب بين مطالع القرآن ومقاصده. وبذلك تحاول الدراسة أن تبين أنّ هذه المفاتيح الأربع قد اجتمع فيها ما يمكن اعتباره مداخل كلية لفهم القرآن، وأن التناسب بينها يكشف عن وحدة موضوعية دقيقة بين المقاصد العقدية والتربوية والتشريعية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنّها تقدم رؤية بلاغية جديدة تربط بين اختيار المطالع ودلالتها المقاصدية، وتعيد قراءة القرآن من زاوية المفاتيح الكبرى التي ترسم معالم خطابه العام. وقد توصلت الدراسة إلى إثبات أنّ هذه الكلمات الأربع تؤسس لنواة المقاصد القرآنية الكلية، وأن حضورها في مطالع السور ليس اعتباطًا، بل جزء من نظام بلاغي إعجازي يربط البداية بالنهاية، ويجعل القرآن وحدة متكاملة في موضوعه ومقاصده، ويكشف عن نوع خاص من رد العجز على الصدر؛ حيث ارتبط مبدأ نزوله بمبدأ جمعه ونظمه ارتباطا معجزا.

وتأتي هذه الدراسة في مقدمة وأربعة مطالب، وخاتمة.

المطلب الأول: مفهوم المطالع والمقاصد بين التراث والدراسات الحديثة.

المطلب الثاني: التحليل البلاغي لدلالة (القرآن . الكتاب) على مقاصد القرآن.

المطلب الثاني: التحليل البلاغي لدلالة (اقرأ) على مقاصد القرآن.

المطلب الرابع: التحليل البلاغي لدلالة (هدى) على مقاصد القرآن.

المطلب الأول: مفهوم المطالع والمقاصد بين التراث والدراسات الحديثة.

يُعَدّ البحث في بلاغة القرآن الكريم من أكثر مجالات الدراسات الإسلامية ثراءً وعمقًا، إذ لا يزال النص القرآني يكشف عن وجوه إعجازه ودقة نظمه، فكلمات القرآن المحدودة بين دفتي المصحف تُظْهِر في كل عصر معاني ودقائق غير محدودة، لا يجليها لوقتها إلا الله تعالى، لتتأكد صلاحية القرآن لكل زمن من الأزمان، وكل شأن من الشؤون.

ومن أبرز الجوانب التي استوقفت العلماء قديمًا وحديثا، دلالة المطالع على المقاصد، أي ما تحمله افتتاحيات السور من إشارات دلالية تمثل مفاتيح تكشف عن مقاصدها ومعانيها الكلية. وقد ارتبط هذا الباب بمفهوم "براعة الاستهلال وحسن المطلع " في البلاغة العربية، غير أن جل الدراسات ركزت على

علاقة مطالع السور بمقاصدها، ولم تلتفت إلى بيان العلاقة بين مطلع القرآن الزمني والنظمي، وهو ما يجعل الحاجة ملحة لتأصيله وتطبيقه في إطار الدراسات القرآنية.

أوّلًا: في التراث اللغوي والبلاغي، نجد أنّ المعاجم بَيَّنت معنى المطالع، فهي جمع مطلع، من طَلَعَ، جاء في القاموس المحيط:" طَلَعَ الكَوْكَبُ والشمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا ومَطْلِعًا: ظَهَرَ، وعلى الأَمْرِ طُلوعًا: عَلِمَهُ ... وطَلِيعَةُ الجَيْشِ: من يُبْعَثُ لِيَطَّلِعَ طِلْعَ العَدُوِّ، ... وفي الحديثِ: "مانَزَلَ من القرآنِ آيَةٌ إلاَّ لَها ظَهْرٌ وبَطْنٌ، ولكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، ولكلِّ حَدٍّ مُطَّلَع"، أي: مَصْعَدٌ يُصْعَدُ إليه من مَعْرِفَةِ علْمِهِ " (الفيروز آبادي. طلع) فمعاني الكلمة تدل على الظهور والبروز والعلو، وهذه الدلالة هي المقصودة في تسمية أوائل الكلام مطالع؛ لأنها أول ما يظهر من الكلام للمخاطب، وأول ما يقرع سمعه، ويفتح قلبه وعقله، وقد أسهم هذا الأساس اللغوي في توجيه الدراسات البلاغية التي اهتمت بفصاحة الكلمة وضرورة التأنق في اختيارها لا سيما في المطالع وفواتح النصوص.

وقد ورد مصطلح المطالع في كتب البلاغة تحت تسميات مختلفة وكلها متقاربة المعنى، منها: ذكر المبادئ (العسكري، ١٩٩٨) ومفتح الشعر. (ابن طباطبا، ٢٠٠٥) وحسن الابتداء والمبادئ والمطالع (ابن المعتز، ١٩٩٠) والاستهلال. (عبدالعزيز الجرجاني) والمبدأ والخروج والنهاية (ابن رشيق، ١٩٨١) وأشهر تسمياته حسن الابتداء وبراعة الاستهلال،.(ابن معصوم، ١٩٦٨) ومعناه: كون ابتداء الكلام مناسبًا للمقصود، بأن يشير المصنف في ابتداء تأليفه، قبل الشروع في المسائل، بعبارة تدل على المرتب عليه إجمالًا. وَيُسمى بالإلماع.(الشريف الجرجاني، ١٩٨٣)

ويرى الحلبي أن " ابن المعتز هو الذي سبق إلى هذه التسمية وأفاض في ذكر شواهد هذا الباب مما احتذاه فيه أبو هلال وسواه "(محمود الحلبي. ١٩٨٠) إلا أن الجاحظ قد سبق بالإشارة إلى هذا اللون في تعقيبه على قول ابن المقفع في تعريف البلاغة: " وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته." قال الجاحظ: " كأنه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت." (الجاحظ، ٢٠٠٢)، فكلام الجاحظ هنا واضح في وصف هذا اللون البديعي، وبيان أهميته، إلا أنه لم يسمِّه.

وهكذا نرى أن البلاغيين أكدوا على أنّ براعة المطلع تكشف عن مقصد النص وتحدد وجهته، غير أن العسكري أضاف ملمحا خطابيا لتأثير حسن المطلع بكونه داعية إلى حسن إصغاء السامع واستمالته، وهو ما درج عليه البلاغيون بعده. قال : " فإذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء من الكلام؛ ولهذا المعنى يقول الله - عز وجل- : ﴿ الٓمٓ. حمٓ . طسٓمٓ . كٓهيعٓصٓ ﴾؛ فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه. (العسكري، ١٩٩٨)

ثانيًا: في التفاسير القرآنية، عُني المفسرون بإبراز أهمية المطالع باعتبارها مدخلًا لفهم مقاصد السور. فقد بنى البقاعي تفسيره نظم الدرر على فكرة وحدة البناء القرآني من خلال الربط بين المطلع والخاتمة والسياق العام. كما أشار السيوطي في مراصد المطالع بإيجاز إلى أنّ افتتاحيات السور تحمل إشارات بلاغية دقيقة ترسم معالم موضوعها. هذه الجهود أسست لوعي عميق بأن المطالع القرآنية ليست مجرد افتتاحيات شكلية، بل هي مفاتيح دلالية تكشف عن المقاصد العامة للسورة.

ثالثًا: في الدراسات الحديثة، قامت بعض الدراسات القرآنية والأدبية حول علاقة المطالع بالمقاصد. منها دراسة الهدهد (١٩٩٤) التي تناولت علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، مؤكداً أن لكل سورة مفتاحًا بلاغيًا يظهر في مطلعها، وأن تسميتها تحمل دلالة على مقصدها. وفي مجال الأدب، درست نداء الحارثي (٢٠٠٩) علاقة المطالع بالمقاصد في شعر الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين، فيما ركّز يوسف الدعدي (٢٠١٨) على الطبقة الثالثة عند ابن سلام الجمحي، مؤكدًا أنّ المطلع الشعري يكشف عن روح النص ويوجّه القارئ نحو مقاصده.

غير أنّ الملاحظ أنّ هذه الدراسات عنيت إمّا بتحليل مطالع السور القرآنية على التفصيل أو بالتركيز على المطالع الشعرية، بينما لم تتناول تحليل مطالع القرآن زمنيا ونظميا باعتبارها الكلمات المفتاحية للقرآن الكريم في ضوء ترتيب نزوله الزمني وترتيبه النظمي في المصحف. وهنا تكمن الفجوة البحثية، فبينما اهتم العلماء ببيان علاقة مطلع كل سورة بمقاصدها، ظلّت الحاجة قائمة لتحديد الألفاظ الكبرى التي افتتح بها القرآن أول سوره عند النزول في ترتيبه الزمني، وأول سوره في ترتيبه النظمي (اقرأ ، الكتاب، القرآن، الهدى) هذه الكلمات تمثل مفاتيح كلية يمكن من خلالها استجلاء المقاصد العامة للقرآن الكريم.

وبالمقارنة بين جهود التراث والدراسات الحديثة، يتضح أنّ العلماء القدامى أرسوا الأسس النظرية لربط المطالع بالمقاصد، فيما قدمت الدراسات الحديثة أدوات منهجية جديدة كالتحليل النصي والمفاهيم النقدية الحديثة كالأسلوبية والتداولية والتناص وتحليل الخطاب، كما ظهر مصطلح "الكلمات المفتاحية" كأداة منهجية للكشف عن البنية الداخلية للنصوص سواء في الأبحاث الأكاديمية أو في مواقع الإنترنت حيث تُعرّف بأنها الألفاظ المركزية التي تكشف عن بنية النص واتجاهاته العامة، ويجب أن تعبر بأفضل شكل عن المقال "(مجلة العربي. العدد ٢٤ . ١٤١٤. هـ)

ويمكن استخلاص تعريف إجرائي خاص للكلمات المفتاحية في القرآن الكريم، بأنها الكلمات التي افتُتِح بها القرآن الكريم في مطلع ترتيبه الزمني، أو ترتيبه النظمي، والتي تكشف عن أهم غاياته، وتشير إلى أعظم مقاصده. ومع ذلك، لا يزال تطبيق هذه الأدوات الحديثة على القرآن يحتاج إلى مقاربة حذرة تراعي خصوصية النص القرآني وقدسيته، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقه.

ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث في أنه لا يكرر جهود السابقين، بل يسعى إلى تجديد النظر في دلالة المطالع عبر زاوية جديدة، وهي الكلمات المفتاحية التي تمثل عتبات كبرى للنص القرآني في ترتيبيه الزمني والنظمي. والتي تتمثل في (القرآن . الكتاب . اقرأ . الهدى) وبذلك يقدّم البحث إسهامًا مزدوجًا: من جهة يؤصّل لمفهوم "الكلمات المفتاحية القرآنية" في ضوء البلاغة العربية التراثية، ومن جهة أخرى يوظف أدوات حديثة لتحليلها واستكشاف علاقتها بالمقاصد الكلية للقرآن الكريم.

المطلب الثاني: التحليل البلاغي لدلالة (القرآن . الكتاب) على مقاصد القرآن الكريم.

هاتان الكلمتان تمثلان عنوان هذا الكتاب الخالد، ولا شك أن للعنوان دلالاته المكثفة على النص " فهو أول عتبة تواجه المتلقي وتفتح ذهنه وتستدعي أفكاره وتثير توقعاته حسب معرفته وثقافته، فالعنوان يولد معظم دلالات النص" (محمد رشد. ٢٠١٤)

أما "القرآن" فهو مصدر " قرأ" بمعنى جمع، قال ابن منظور: " وكلُّ شيءٍ جَمَعْتَه فَقَدَ قَرَأْتَه. وَسُمِّيَ قرآنا؛ لأَنه جَمَعَ القِصَصَ والأَمرَ والنهيَ والوَعْدَ والوَعِيدَ والآياتِ والسورَ بعضَها إِلَى بعضٍ" (ابن منظور. قرأ) وهو أشهر الأسماء؛ لأنه الاسم الذي لم يشاركه فيه غيره من الكتب، فلم يسم كتاب من الكتب السماوية قبله بهذا الاسم، أما غير ذلك من الأسماء كالفرقان والذكر والنور والكتاب فقد سميت بها غيره من الكتب المنزلة كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) وقال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٨)

وأما "الكتاب" فهو مصدر (كَتَبَ) وهو في الأصل يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ " (ابن فارس. كتب) فنلاحظ أن أصل الكلمتين (القرآن والكتاب) يدل على الجمع إلا أن القرآن لوحظ فيه الجمع في النطق، والكتاب لوحظ فيه الجمع في الخط، وعند التأمل في سياق ورود هاتين الكلمتين تنكشف أسرار بلاغية لطيفة تنم على إعجاز نظم القرآن الكريم.

أولا: السر في سياق ورودهما في الترتيب الزمني والترتيب النظمي للقرآن الكريم.

نجد أن أول ذكره في الترتيب الزمني سمي قرآنا، قال - تعالى - في سورة المزمل- وهي ثالث سورة نزولا بعد العلق والقلم- ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ (المزمل: ٤) وأول ذكره في الترتيب النظمي سمي كتابا. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢) وفي هذا إشارة إلى أن القراءة والكتابة هما دفتا هذا المصحف اللتان تكتنفانه وتحفظانه من الضياع والنسيان والتحريف، وأن القراءة والكتابة هما جناحا من يريد الوصول إلى أسراره، والتحليق في سماء علومه.

يقول دراز " في تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ... وبهذه العناية المزدوجة بقي القرآن محفوظا في حرز حريز؛ إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر.: ٩) ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (المائدة: ٤٤) أي: بما طلب إليهم حفظه، والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة " (دراز. ١٩٩٧) فأول أسرار تسميته قرآنا وكتابا،

ليشير بذلك إلى وجوب حفظه، والمبالغة في العناية به، قراءة وكتابة، ليبقى غضا طريا، يتلى كما أنزل أول مرة بنبره ونغمه ومده، وتجويده، وحروفه وكلماته وآياته وسوره.

ثانيا: السر في تقدم تسميته بالقرآن في الترتيب الزمني، وتقدم تسميته بالكتاب في الترتيب النظمي

نرى أنه في الترتيب الزمني بدأ ذكره بلفظ القرآن؛ ليناسب الغاية التي من أجلها نزل، وهي قراءته على الناس وتبليغهم إياه" قال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦) فقد نزل ليتلى ويبلغ للناس.

أما في الترتيب النظمي فتقدم ذكره بلفظ الكتاب، ليناسب الحال الذي انتهى إليها من تمام النزول وكمال الجمع، فالكتاب لا يسمى كتابا إلا إذا تم وجمع، قال ابن منظور" الكِتابُ اسْمٌ لِمَا كُتب مَجْمُوعاً "(ابن منظور. كتب) ومن ثم بدأ في الترتيب النظمي بالإشارة إليه " ذلك الكتاب " كأنه يقول ذلك المكتوب المجموع بين الدفتين لا ريب فيه هدى للمتقين، كما أن التعبير بالكتاب هو الأنسب للترتيب النظمي المحكم فهو كتاب مكتوب في الأزل، ثم لما نزل قرئ فناسب تسميته قرآنا في مطلع ترتيبه الزمني، وكلا اللفظين مشتقان من مادة " قرأ " " وكتب " التي تدل على معنى الجمع، وفي هذا إيحاء بخصوصية القرآن في جمعه لكل خير واشتماله على كل معجز. قال الراغب في المفردات: " قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قُرْآناً من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (يوسف: ١١١) وقوله: ﴿ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩) (الأصفهاني. قرأ)، فالقرآن هو الجامع لثمرات كل العلوم، والحاوي لكل ما يعجز الخلق، كما أن اختصاصه باسم القرآن من بين الكتب المنزلة، فيه إشارة أنه أكثرها قراءة وأدومها تلاوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن الأسرار اللطيفة في تسميته بالقرآن، أنه يدل على وضوح معناه وسهولة فهمه، فهو قرآن، أي: مقروء، والنص المقروء هو المفهوم الواضح، " يقال: تقرَّأ بمعنى تفهَّم، وقرأ بمعنى فهم" والقراءة عملية ذهنية تبدأ بترجمة الحروف والكلمات المكتوبة إلى معاني ذهنية واضحة، ثم يتبعها التأمل والتدبر وصولا إلى المعرفة والإدراك، وانتهاء إلى الاستخلاص والاستنباط، وهذا من أبلغ وجوه إعجازه، فلغته فى الدرجة العليا من الفصاحة والبلاغة، ومع ذلك يفهمه كل من يقرأه وإن كان عاميا، ثم يرتقي أهل التخصص في تدبره كل على قدر علمه وصولا إلى إدراك غاياته، واستنباط أحكامه ومراميه، فهو السهل الممتنع، أو هو القريب البعيد.! وهذا ما عبر عنه الجاحظ في وصف البلاغة حين قال:" وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " (الجاحظ. ٢٠٠٢)، وهذا الوصف الدقيق أصدق ما يكون على بلاغة القرآن الكريم، فما إن تأخذ في تلاوته حتى تتسابق المعاني والخواطر فتكون إلى قلبك أسبق من الألفاظ إلى سمعك، ومن ثم حُقَّ أن يسمى قرآنا دون غيره من الكتب المنزلة، لأنه يفتح لقارئه أبواب معانيه، ويكشف لمتأمله أسرار مراميه.

ومن اللطائف القرآنية البديعة أن الله - جل وعلا – لما تكفل بحفظه، لم يسمه بواحد من هذين الاسمين الجليلين، وإنما سماه (الذكر) فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(الحجر: ٩)

وذلك لأن انفراد أحد هذين الاسمين (القرآن والكتاب) لا يضمن حفظه فالمقروء قد ينسى، والمكتوب قد يضيع، أما الذكر ففيه كفالة الحفظ، وضمان الخلود؛ لأن الذكر يستعصي على الضياع والنسيان. فهو دائما مذكور فكيف يضيع أو ينسى.

ثالثاً: السر في التعبير بالجملة الفعلية مع القرآن، والاسمية مع الكتاب.

قال – تعالى -: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: ٤) وقال: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ (البقرة: ٢) فأمر بترتيل القرآن، ولم يقل ورتل الكتاب، لمناسبة الترتيل للقراءة، فالمقصد من تسميته قرآنا أن يُقْرأ، وسميت قراءته ترتيلا لمقصد هام، وهو الاجتهاد في تجويد قراءته وتحسينها، والترسل فيها مع تناسق واستقامة، " فالترتيل من الرَّتْلِ، وهو: اتِّساق الشيءِ وانتظامه على استقامة، والرَّتَل والرَّتِل: الطَّيِّب من كلِّ شيءٍ. وكلامٌ رَتَل ورَتِلٌ أَي مُرَتَّلٌ حسَنٌ عَلَى تُؤَدَةٍ. والتَّرْتِيلُ فِي الْقِرَاءَةِ: التَّرَسُّلُ فِيهَا وَالتَّبْيِينُ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ. (ابن منظور، رتل) فالترتيل صفة للقراءة، ومن ثم ناسب ذكر القرآن معها.

أما الكتاب فهو ما تم جمعه وفرغ من إملائه، ومن ثم ناسب البدء به في وصفه بأنه لا ريب فيه هدى، لأن الهدى إنما يتحقق بأخذه كاملا. كما أن في التعبير بالجملة الاسمية " ذلك الكتاب " ما يدل على استقراره على هذه الحال من الحفظ والكمال، وثبوت نفعه هداية وتشريعا وديمومته إلى ما شاء الله.

وهكذا يتبين أن العنوان (القرآن والكتاب) هما الكلمتان المفتاحيتان للقرآن الكريم، وهما مفتاح خزائن أسراره، وسر خلود إعجازه، فالقراءة مفتاح العلوم، والكتابة مخازنها، فهو كتاب لأنه مكتوب يحفظ العلوم ويحتويها، وهو قرآن؛ لأنه مقروء، تستفتح خزائن علومه بقراءته وفهمه، وتتسع معانيه بالتدبر والتأمل فيه على قدر مستوى قارئه. وقد ناسب كل اسم مطلعه الذي ورد فيه زمنا ونظما.

المطلب الثالث: التحليل البلاغي لدلالة (اقرأ) على مقاصد القرآن الكريم.

عندما يتأمل الباحث في مطلع القرآن زمنا ونظما يتبين أن الفعل " اقرأ " هو الكلمة المفتاحية للقرآن الكريم، وهذه الكلمة تطالعنا بجملة من أسرار هذا الكتاب المعجز الخالد، والدلالات على مقاصده!

أولا: التطابق المعجز بين مطلع الترتيب الزمني ومطلع الترتيب النظمي.

فالترتيب الزمني افتتح بقوله – عز وجل - ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(العلق:١ :٥)

والترتيب النظمي افتتح بقوله – تعالى - : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) وتقديره: بسم الله أقرأ . قال الإمام الطبري: " القائل إذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم افتتح تاليًا سورةً، فإتباعه (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (الطبري. ٢٠٠٠) فالتناسب بين البداية الزمنية والبداية النظمية تناسب معجز، فالأولى أمر بالقراءة، والثانية امتثال للقراءة، ثم تختص كل بداية بما يناسب سياقها من خصوصيات تؤكد إعجاز القرآن وروعة بيانه.

ثانيا: الفروق والخصوصيات لكل مطلع

نلاحظ إظهار الفعل (اقرأ) وتقديمه في البداية الزمنية، وإضماره وتأخيره في البداية النظمية.

فالإظهار والتقديم مناسب لبداية نزول القرآن حيث لم يسبق سياق يوضح المحذوف، ومن ثم لا يجوز حذفه، فلا حذف بغير دليل، فلو قيل: باسم ربك لما فهم المراد منها، كما أن في تقديمه تقرير وتأكيد لأمر القراءة وأهميتها وفيه كذلك تنبيه وإيقاظ للنبي – صلى الله عليه وسلم. قال الألوسي : " روي أن جبريل - عليه السلام - قال للنبيّ - صلّى الله عليه وسلم -: اقْرَأْ وكرر عليه ثلاث مرات ثم قال له: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ " فأخر بيان ما أمره به أولا مع إجماله إلى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل - عليه السلام - وسؤال النبي - صلّى الله عليه وسلم - مع إمكان بيانه أولا " مما يدعو إلى الدهشة والانتباه. (الألوسي . ١٩٩٤) وقال الطاهر ابن عاشور: " وَافْتِتَاحُ السُّورَةِ بِكَلِمَةِ اقْرَأْ إِيذَانٌ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَيَكُونُ قَارِئًا، أَيْ تَالِيًا كِتَابًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَا كِتَابًا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ، أَيْ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِجِبْرِيلَ حِينَ قَالَ لَهُ اقْرَأْ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» وَفِي هَذَا الِافْتِتَاحِ بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ لِلْقُرْآنِ." (الطاهر بن عاشور. ١٩٨٤)

كما أن في ذكر (اقرأ) وتقديمه تناسب مع ذكر القرآن الذي ابتدئ به التنزيل زمنيا، وفي ذلك تأكيد على أهم مقاصد هذ الكتاب العزيز، وأصل غاياته وهو القراءة والعلم الموصل إلى معرفة الله – تعالى – وحقائق الكون وتاريخ الإنسان، ومن ثم كانت القراءة هي أول أمر نزل به الوحي على نبينا الكريم- صلى الله عليه وسلم-

أما الإضمار والتأخير في البداية النظمية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ففيه نكات ولطائف منها:

أن في الإضمار تركيز على إبراز اسم الله في البدء دون حاجة إلى شيء؛ ليكون البدء مباشرة بسم الله، وفي هذا تقرير لمهابته في النفوس، وتربية له في الضمائر. وفي التأخير إفادة القصر، قال الزمخشري: " فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذي يتلو التسمية مقروء.(الزمخشري. ١٩٨٦) فالفعل هنا مقدر بعد الجار والمجرور لإفادة القصر أي بسم الله أقرأ لا باسم غيره.

إشكال في ذكر فعل الأمر " اقرأ " في مطلع القرآن زمنيا.

أشار الإمام الماتريدي إلى هذا فقال: " الإشكال أنه أمره بأن يقرأ باسم ربك الذي خلق، وحق هذا ونحوه إذا قيل له: اقرأ، أو افعل: ألا يقول مثل ما قيل له: اقرأ أو افعل؛ لأنه أمر في الظاهر إنما يكون عليه الائتمار بذلك، ... هذا هو وجه الكلام ومعناه. وجوابه أنه يحتمل وجوها: أحدها: أنه أريد بهذا أن يكون قرآنا يقرأ هكذا، ويثبت في المصاحف إلى آخر الدهر؛ ليعلم كيف قيل لرسول الله؟ وكيف أوحي إليه؟ وأنه لم يترك مما قيل له حرفا واحدا؛ ليكون حجة لرسالته وآية لنبوته، والله أعلم. والثاني: أن يكون الخطاب منه لكل أحد، ومن كل أحد لآخر، خاطب جبريل - عليه السلام - رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - به، وأمره أن يقرأ، ثم يأمر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - غيره بذلك، وذلك الغير يقول لآخر كذلك؛ فيكون الخطاب منه لكل أحد، ومن كل أحد لآخر."(الماتريدي. ٢٠٠٥)

ومعنى هذه الشبهة، أنه لا ينبغي للنبي – صلى الله عليه وسلم – أن يكرر فعل الأمر الذي أُمِرَ به، ولكن إذا قيل له: اقرأ باسم ربك، أن يقول هو: باسم ربي. ونحوه قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ الناس، وغيرها، وقد خرَّج الإمام الماتريدي هذا الإشكال بتوجيهين: الأول: أن المراد إثبات هذا في القرآن كما أنزل، ليكون دليلا على صدق النبي – صلى الله عليه وسلم - وأمانته في التبليغ. والثاني: - وهو أمس رحما بالبلاغة العالية، وأقرب صلة بالإعجاز الخالد- أن تكرير هذا الأمر " اقرأ " بنصه من كل قارئ لآخر يفيد تجدد القراءة واستمرارها، ووجوب ديمومتها وعدم انقطاعها.

وأرى أنها ليست فقط خطابا من كل أحد لآخر، كما قال الماتريدي، وإنما هي خطاب من كل مخاطب لنفسه، وأمر من كل قارئ لذاته، يخاطب فيها عقله ووجدانه، ويستحث همته إلى قراءة هذا القرآن المعجز، وإعادة قراءته مرة بعد مرة، ليفهم مراد ربه منه، وليصل إلى حقائق العلم، ويجتلي أنوار الإيمان.! كما أن فيه إشارة إلى أن القرآن لم ينزل لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – خاصة، وإنما نزل لكل البشرية، وقد بلغ النبي – صلى الله عليه وسلم - عن ربه، وأدى الأمانة، وترك لنا هذا القرآن يقرؤه كل قارئ حجة على الخلق جميعا. فالخطاب في قوله: " اقرأ " وإن كان خاصا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – في هذا الموقف، إلا أنه عام لكل من يتأتى منه القراءة، وهذه سمة من سمات إعجاز القرآن أن خطابه موجه لكل من يعقل، فما من قارئ يقرأه إلا ويستشعر أنه خطاب له وحده، وأنه المعني به قبل غيره.! وهناك سر بليغ في جعل الأمر هنا للمفرد فلم يقل: " اقرؤا باسم ربكم " لأنه خطاب لكل إنسان على حدة، وكأنه يستحث وجدانه، ويستفتح قلبه بهذا الخطاب الفردي، ليستشعر مهمته، ويتخذ وسيلته وعدته، اقرأ أنت، باسم ربك أنت. كما يوحي بأن القراءة والتأمل والتعقل والتدبر أمر يحتاج إلى الانفراد والعزلة، والانقطاع عن ضوضاء الحياة، وغوغاء الناس، لتؤتي ثمرتها، وتجني جناها.

كما أن التعبير بصيغة الأمر (اقرأ) في الترتيب الزمني مناسب لبدء التكليف بقراءة هذا القرآن، وتعلمه وتدبره، وإظهاره ليبقى قرآنا متلوا مدويا يصدع بهذا الأمر المهم في أذن كل إنسان. والتعبير بصيغة المضارع (أقرأ) المقدر متأخرا في الترتيب النظمي مناسب لإذعان العبد وإعلانه الامتثال للأمر الأول الذي كلف به، وإضماره إشعار بأن هذا الامتثال والإذعان نابع من أعماق الضمير، لا يشوبه رياء، وكأنه يقول سمعا وطاعة يا مولاي، لبيك من أعماق نفسي. وهكذا تتناغم الكلمة المفتاحية في الترتيب الزمني والنظمي على تأكيد أهم مقاصد القرآن الكريم، وهو القراءة والعلم، فقد جاء هذا الكتاب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهذا لا يتأتى إلا بالعلم، وسبيل العلم القراءة.

ثالثا: السر في حذف مفعول (اقرأ). جاء الأمر بالقراءة مطلقا " اقرأ " دون تقييد بمفعول؛ للدلالة على عموم القراءة في كل علم من العلوم، أو فن من الفنون، ولتبقى آفاق القراءة مشرعة كقبة السماء، ينهل منها أصحاب العقول الذكية والنفوس النقية، المهم أن تبلغ بك هذه القراءة إلى الغاية المنشودة، وتفضي بك إلى النتيجة المحمودة، فلا حرج عليك أن تقرأ في أي علم من العلوم، ما دمت متعلق القلب بربك، متخذا من هذا العلم وسيلة إلى معرفة خالقك، ومعراجا ترقى به إلى تزكية نفسك، ومصباحا تستنير به في طريق سلوكك إلى الله عز وجل. فالمفعول في قوله "اقرأ" محذوف لتنزيل الفعل منزلة اللازم، أي: أوجد القراءة، أو للتعميم، أي: اقرأ كل علم. وقدر الألوسي المفعول فقال : " اقْرَأْ " أي: ما يوحى إليك من القرآن،

فالمفعول مقدّر بقرينة المقام كما قيل، وليس الفعل منزلا منزلة اللازم " (الألوسي . ١٩٩٤) فيكون حذف المفعول مع وضوحه من السياق للدلالة على شهرته واختصاصه بالأمر، كأنه إذا قيل: " اقرأ " لم ينصرف الذهن لشئ آخر غير القرآن. وهذا ما أشار إليه البقاعي بقوله : " وحذف مفعوله إشارة إلى انه لا قراءة إلا بما أمره به، وهي الجمع الأعظم، فالمعنى: أوجد القراءة لما لا مقروء غيره، وهو القرآن الجامع لكل خير"(البقاعي. ١٩٩٥)

رابعا: السر في ابتداء الترتيب الزمني بصفة الربوبية، والترتيب النظمي بصفة الألوهية.

نرى أن الترتيب الزمني بدأ بصفة الربوبية ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ والترتيب النظمي بدأ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وكل بداية مناسبة لسياقها تمام التناسب.

فالافتتاح بذكر الربوبية مناسب للبداية الزمنية لأنه أول خطاب يوجه للنبي – صلى الله عليه وسلم – وأول خطاب سيوجهه هو لقومه، وهم ما كانوا يعرفون الله الإله المعبود الرحمن الرحمن الرحيم، ولكنهم كانوا يقرون بربوبيته وخلقه، قال الرازي: " إِنَّ الْحَكِيمَ – سُبْحَانَهُ - لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَهُ رَسُولًا إِلَى الْمُشْرِكِينَ، لَوْ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، لَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ منه، لكنه – تعالى - قدم ذلك مُقَدِّمَةً تُلْجِئُهُمْ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِهِ، فَبِهَذَا التَّدْرِيجِ يُقِرُّونَ بِأَنِّي أَنَا الْمُسْتَحِقُّ لِلثَّنَاءِ دُونَ الْأَوْثَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٨٧] (الرازي ١٩٩٩) وَبَيَّنَ الربوبية بجملة الصلة" الذي خلق " فلم يقل الذي رزق، أو رفع أو بسط ونحوها، لأن الخلق هو أساس النعم ومنشؤها، وأعظمها. وقال الماوردي: " وإنما قال: " الذي خلق " لأن قريشاً كانت تعبد آلهة ليس فيهم خالق غيره - تعالى - فميّز نفسه بذلك ليزول عنه الالتباس." (الماوردي. ١٩٩٢)

وحذف مفعول خلق أولا، ثم بينه بقوله: " خلق الإنسان من علق " لما في البيان بعد الإبهام من قوة وتأكيد، وإثارة الانتباه لموضع البيان، فهو ذو أهمية بالغة، ويحتمل المعنى وجوها أخرى: قال الزمخشري: " فإن قلت: كيف قال:" خَلَقَ " فلم يذكر له مفعولا، ثم قال: "خَلَقَ الْإِنْسانَ"؟ قلت: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعولا، وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: "خَلَقَ الْإِنْسانَ " تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق؛ لأن التنزيل إليه، وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد: الذي خلق الإنسان، كما قال: " الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ " فقيل: " الَّذِي خَلَقَ " مبهما، ثم فسره بقوله: " خَلَقَ الْإِنْسانَ " تفخيما لخلق الإنسان، ودلالة على عجيب فطرته." (الزمخشري ١٩٨٦) ثم نلاحظ المناسبة بين الخلق والعلم، فقد أمر الحق - جل وعلا – بالقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ثم كرر الأمر بالقراءة، وأردفه بالكتابة، فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٣، ٤، ٥) تأكيدًا على أهمية العلم ورفعة شأنه، وأنه السبيل إلى الغاية العظمى من الخلق وهي معرفة الله وعبادته، ومن ثم ربط الأمر الأول بالخلق، وربط الأمر الثاني بالعلم. قال الفخر الرازي: " وَصَفَ سبحانه نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَثَانِيًا بِأَنَّهُ عَلَّمَه بِالْقَلَمِ، وَلَا مُنَاسَبَةَ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، لَكِنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ أَوَّلَ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ كَوْنُهُ عَلَقَةً وَهِيَ أَخَسُّ الْأَشْيَاءِ وَآخِرُ أَمْرِهِ هُوَ صَيْرُورَتُهُ عَالِمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ أَشْرَفُ مَرَاتِبِ الْمَخْلُوقَاتِ فَكَأَنَّهُ – تَعَالَى -

يَقُولُ: انْتَقَلْتَ مِنْ أَخَسِّ الْمَرَاتِبِ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُدَبِّرٍ مُقَدِّرٍ يَنْقُلُكَ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الْخَسِيسَةِ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّرِيفَةِ." (الرازي، ١٩٩٩)، ففي وصفه سبحانه – ذاته بأنه الأكرم وإرداف ذلك بأنه علم بالقلم، ما يوحي بفضل العلم وشرفه، وأنه أعظم نعمة وأكرم هبة من الله تعالى للإنسان. قال الزمخشري: " كأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال: " الأكرم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ " فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين، ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به" (الزمخشري. ١٩٨٦) وهكذا يتجلى الإعجاز البلاغي في التطابق الدقيق بين بدء القرآن زمنيا ونظميا بفعل القراءة؛ تأكيدا على أهمية القراءة، وكونها سبيلا أساسيا لوصول الإنسان إلى خالقه.

المطلب الرابع: التحليل البلاغي لدلالة (هدى) على مقاصد القرآن.

وردت هذه الكلمة المفتاحية (هدى) في افتتاح الترتيب النظمي ثلاث مرات: الأولى: في سورة الفاتحة بصيغة الأمر في قوله – تعالى –: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾(الفاتحة: ٦) والمراد به الدعاء. والثانية: في أول سورة البقرة بصيغة الخبر في وصف الكتاب العظيم قال – تعالى " ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢) والثالثة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) كما وردت في بداية الترتيب الزمني وصفا للنبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله – تعالى –: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ * أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ (العلق: ١١، ١٢)

وهذه الكلمة المفتاحية تمثل المقصد الأعظم من القرآن، والغاية الكبرى من إنزاله، فما نزل القرآن إلا لهداية البشر، وتعريفهم بربهم، ولا تحصل الهداية إلا للمتقين، ومن ثم ارتبطت الهداية بالتقوى في افتتاح الترتيبين الزمني والنطمي، وكأنه لا هدى إلا مع التقوى، ومن حُرِم التقوى حُرِم الهدى. والقراءة والعلم أقوى أسباب الهداية، وأوسع سبل التقوى " قال – تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ (البقرة: ٢٨٢) هكذا تتناغم افتتاحية الترتيب الزمني والترتيب النظمي للقرآن الكريم في تأكيد هذا المقصد الجليل وهو حصول الهدى لمن تحقق بالتقوى. والتأمل في سياق هذه الكلمة زمنا ونظما يكشف عن فوائد جليلة، منها:

أولا: تقدم ذكر الهداية بصيغة الدعاء ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وهو دعاء يكرره المسلم في صلولته الخمس يوميا، تأكيدا على أن سبيل النجاة الوحيد في الهدى، وأن هذا الهدى لا يتحقق إلا بمحض توفيق من الله تعالى، ثم تأتي الإجابة تالية لهذا الدعاء في قوله تعالى " ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، إشارة إلى أن من طلب الهداية فليستمسك بذلك الكتاب، فلا ريب فيه هدى للمتقين، ثم يتكرر ذكر الهدى في مطلع القرآن النظمي، بعد ذكر صفات المتقين الذين أنزل الكتاب هداية لهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ والتدبر في اسم الإشارة بلفظ البعد في قوله: " ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ " وقوله: " أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى " يوحي بمدى التناغم والتناسق، فكأن المتقين لما تمسكوا بذلك الكتاب العالي المكانة، نالوا حظا من علو مكانته فأشار إليهم بـ " أُوْلَٰٓئِكَ " قال الزمخشري: " وفي اسم الإشارة (أولئك) إيذان بأنّ ما يرد

عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم، ومعنى الاستعلاء في قوله: (عَلى هُدىً) مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به. شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل" (الزمخشري. ١٩٨٦)

وقد ورد وصف سيد المتقين محمد – صلى الله عليه وسلم – بنفس الصفة في مطلع القرآن ومنيا، بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ وحرف الجر "على" هنا كذلك للاستعلاء، فكأنه على الهدى مستعل عليه متمكن منه، إلا أن التأمل يكشف عن فرق بين وصف المتقين ووصفه صلى الله عليه وسلم، حيث جاء لفظ " هدى " نكرة، في وصف المتقين ولفظ " الهدى " معرفة في وصفه صلى الله عليه وسلم، ليشير إلى أن المتقين نالوا قسطا من الهدى لأنهم اتبعوا ذلك الكتاب، أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد حاز الهدى الكامل، ومن ثم كان هديه خير الهدي، فهو سيد المتقين والمهتدين. ولعل في تقديم وصفه صلى الله عليه وسلم، زمنا إشارة إلى أنه قائد المهتدين وإمامهم. فتعريف الهدى في وصفه صلى الله عليه وسلم، وتنكيره في وصف المتقين، يوحي بأنه قد حاز الهدى الكامل المنقطع النظير، وأنهم على شيء من الهدى، قد نالوا حظا منه باتباعهم إياه.

وترتيب هاتين الكلمتين المفتاحيتين: " اقرأ " و " هدى " في النظم معجز غاية الإعجاز، فالكلمة الأولى: " اقرأ " سبيل إلى الثانية: " هدى " فلا هدى بدون قراءة حقيقية لهذا الكتاب المعجز، فكل ما في هذا القرآن هدى وإرشاد إلى طريق الله – جل وعلا - والهدى أول سبل الخير، وأجمع الكلمات وأوفاها لمعاني البر، والسبيل الأول إليه هو القراءة والعلم.

هكذا يتبين الإعجاز القرآني في التناسب المعجز بين ترتيبه الزمني، وترتيبه النظمي، وتوافقهما على كلمات مفتاحية هي القرآن والكتاب واقرأ والهدى، وأن غاية مقاصده الهدى والرشاد إنما تنال بحصول مطالعه، فالقراءة المتجردة عن الهوى، الباحثة عن الحق تقود إلى الهدى، وتحرس من الزيغ. وجل القدير إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ، فمن قرأ وعلم علما متصلا بالله فتحت له أبواب مقاصده، ووسعت له شعاب موارده.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أنّ المطالع في القرآن الكريم تمثل مدخلًا بلاغيًا مهمًا للكشف عن مقاصده الكلية، وأنّ الكلمات المفتاحية الواردة في مطالع القرآن – سواء في ترتيبه الزمني أو في ترتيبه النظمي – تحمل دلالات جامعة لا تنفصل عن غاياته الكبرى. وقد أسفر البحث عن جملة من النتائج، أهمها:

١. تحديد تعريف إجرائي لمفهوم "الكلمات المفتاحية القرآنية" بوصفها الألفاظ التي افتتح بها القرآن الكريم ترتيبه الزمني والنظمي، والتي تكشف عن مقاصده الكلية.
٢. تبيّن أنّ هذه الكلمات تنحصر في أربع، هي: القرآن، الكتاب، اقرأ، الهدى.
٣. وأن هذه الكلمات تشكّل مفاتيح جامعة لمقاصد الوحي.

٤. أوضحت الدراسة الفرق بين الترتيب الزمني لنزول القرآن والترتيب النظمي لجمعه في المصحف، وكشفت عن الترابط الإعجازي بين المطلعين، الزمني والنظمي، بما يؤكد وحدة البنية البيانية والمقصدية للقرآن الكريم.

٥. كشفت الدراسة عن بعض الأسرار البلاغية لورود هذه الكلمات في سياقي النزول والجمع، وما تعكسه من تناسب معجز بين مطالع القرآن الكريم ومقاصده.

وانطلاقًا من هذه النتائج، توصي الدراسة بمواصلة البحث في ظاهرة الكلمات المفتاحية على مستوى كل سورة على حدة، لاستجلاء العلاقة بين مطالع السور ومقاصدها التفصيلية. كما تدعو إلى توسيع مجال البحث ليشمل براعة الختام وخواتيم السور القرآنية، للكشف عن التكامل البلاغي بين المطلع والختام في النص القرآني، باعتباره نصًا معجزًا في افتتاحياته وخواتيمه على السواء. وبهذا، يسهم البحث في إثراء الدراسات البلاغية القرآنية، ويؤكد الحاجة إلى مقاربات جديدة تتناول النص القرآني بوصفه وحدة متكاملة في بنيته وأهدافه.

المراجع

1. Al-Alusi, S. D. M. 1994. *Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Qur'an al-'Azim wa al-Sab' al-Mathani* (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
2. Al-Askari, A. H. 1998. *Al-Sina'atayn*. Al-Maktabah al-'Asriyyah.
3. Al-Biqa'i, I. U. 1992. *Nazm al-Durar fi Tanasub al-Ayat wa al-Suwar*. Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
4. Al-Jahiz, A. B. 2002. *Al-Bayan wa al-Tabyin*. Dar wa Maktabat al-Hilal.
5. Al-Khadimi, N. 1998. *Al-Ijtihad al-Maqasidi: Hujjiyyatuhu, Dawabituhu, Majalatuhu*. Ri'asat al-Mahakim al-Shar'iyyah wa al-Shu'un al-Diniyyah.
6. Al-Khatib al-Qazwini, M. A. 1993. *Al-Idah fi 'Ulum al-Balaghah* (3rd ed.). Dar al-Jeel.
7. Al-Maturidi, A. M. 2005. *Tafsir al-Maturidi (Ta'wilat Ahl al-Sunnah)* (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
8. Al-Razi, M. U. 1999. *Al-Tafsir al-Kabir (Mafatih al-Ghayb)* (3rd ed.). Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi.
9. Al-Sa'idi, A. 2005. *Bughyat al-Idah li-Talkhis al-Miftah fi 'Ulum al-Balaghah* (17th ed.). Maktabat al-Adab.
10. Al-Sharif al-Jurjani, A. M. 1983. *Al-Ta'rifat* (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
11. Al-Suyuti, A. A. 1974. *Al-Itqan fi 'Ulum al-Qur'an* (4th ed.). Al-Hay'ah al-Misriyyah al-'Ammah lil-Kitab.
12. Al-Tabari, A. J. M. 2000. *Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an* (1st ed.). Mu'assasat al-Risalah.
13. Al-Wazzani, A. T. 2008. *Tawzif al-Maqasid fi Fahm al-Qur'an*. Jam'iyyat al-Muhafazah 'ala al-Qur'an al-Karim.
14. Al-Zamakhshari, M. U. 1986. *Al-Kashshaf* (3rd ed.). Dar al-Kitab al-'Arabi.
15. Diraz, M. A. 1985. *Al-Naba' al-'Azim: Nazarat Jadidah fi al-Qur'an*. Dar al-Thaqafah.

16. Habannakah, A. H. 1996. *Al-Balaghah al-'Arabiyyah* (1st ed.). Dar al-Qalam.
17. Ibn Ashur, M. T. 1984. *Al-Tahrir wa al-Tanwir*. Al-Dar al-Tunisiyyah lil-Nashr.
18. Ibn Atiyyah, A. M. A. 2001. *Al-Muharrar al-Wajiz fi Tafsir al-Kitab al-'Aziz* (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
19. Ibn Hisham, J. D. 2000. *Awdah al-Masalik ila Alfiyyat Ibn Malik*. Dar al-Fikr.
20. Ibn Ma'sum, A. A. 1968. *Anwar al-Rabi' fi Anwa' al-Badi'*. Matba'at al-Nu'man.
21. Rushd, M. 2014, February 11. *Madkhal Nazari li-Dirasat al-'Unwan*. Diwan al-Arab.